المهذب من مدارج السالكين

لِلإمام ابن قيم الجوزية

إعداد

صالح أحمد الشامي

دار القلم

هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر

المُهَذَّبُ مِنْ

مَدَارِجِ السَّالِكِينَ

وقد إستئذناه - حفظه الله - في

تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

موقع الشيخ صالح الشامي

saleh.shami.me

نشر على موقع الألوكة

لمشاهدة حلقة صفحات من حياتي

مع الشيخ صالح الشامي

www.archive.org/details/MyLife_SalehAl-Shami

www.youtube.com/user/baramegdoaa

المُهَذَّبُ مِنْ

مَدَارِجِ السَّالِكِينَ

المُهَذَّب

مِن مَدارِجِ السَّالِكِين

لِلإمام ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشّامي

دار القلم

دمشق

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

حُقوق الطَّبْع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزيع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقدمة التهذيب

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهمَّ صلِّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

يعدُّ كتاب «مدارج السالكين» الذي ألفه الإمام ابن القيم، من الكتب المتقدِّمة التي تحدَّثت عن أعمال القلوب وتهذيب النفوس، وتأديبها بآداب المتقين الصادقين.

وللإمام قَدَمُه الثابتة في هذا الميدان، فقد كثرت كتابته فيه، وتنوَّعت عباراته، وتعددت أساليبه.

وهو يضع خلاصة ذلك كله في «مدارج السالكين» مستنيراً بهدي الله تعالى مما تضمنته سورة الفاتحة.

يقول في ذلك:

«فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ـ القرآن الكريم ـ ولا تستثمر إلا من شجراته.

ونحن ـ بحمد الله ـ ننبه على هذا، بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن وعلى ما تضمنته هذه السورة من المطالب، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين..».

ولكن ابن القيم لم ينفرد في تأليف هذا الكتاب، فقد شاركه فيه الإمام

الشيخ أبو إسماعيل الهروي المتوفى قبله بما يزيد عن قرنين من الزمان.

فللإمام الهروي كتاب عنوانه «منازل السائرين» جعله ابن القيم محوراً لكتابه، واستغرق شرحه له قسماً كبيراً من «مدارج السالكين».

وهذا ما جعل الكتاب ـ على نَفَاسته ـ بعيداً عن أيدي عامة المبتدئين من طلاب العلم من أمثالي، لما تستلزمه طريقة الشرح من عدم انسياب العبارة، والوقوف مع «الألفاظ» التي سبَّبها التكلُّف اللفظي والمعنوي، أو مع «المصطلحات» كالفناء، والاتصال، وجمع الوجود، وجمع العين... التي لم يأتِ لها ذكر في القرآن ولا في السنة، ولا يعرفها إلا النادر من الناس ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة.

وهذا الذي أقوله، ليس رأياً خاصاً بي، ناتجاً عن قصور في الفهم، أو عدم صبر على العلم.. ولكنه واقع يلمسه معظم الذين يقرؤون هذا الكتاب.. ولكنهم قد لا يُصرِّحون بمعاناتهم..

ويسجل لنا الأستاذ صلاح شادي تجربته في هذا الموضوع في كتابه «تأملات في كتاب مدارج السالكين» واصفاً شغفه بالكتاب وقد اندفع راغباً في قراءته، فيقول:

«فعالجت صفحاته في شوق، ولكن صدمتني وعورة دروبه ومسالكه، فانصرفت عنه..».

وتركه مدة، ثم عاد إليه ليقول: «فبدأت قراءته.. ومع ذلك وجدت عسراً شديداً في فهم ما يرمي إليه الإمام الهروي، بل وحتى بعد التبسيط الذي ساقه ابن القيم..»[1].

فهذا القارئ الفاضل المثقف، أفصح عن معاناته عند قراءته الكتاب،

---

(١) تأملات في كتاب مدارج السالكين، ص٢، الناشر: شركة شعاع للنشر. الكويت.

وقد اضطر إلى قراءته عدة مرات كما يقول في تتمة مقدمته.

وأتساءل: وهل كل القراء يمتلكون صبر الأستاذ شادي؟

لهذا رأيت أن أقوم بتهذيب الكتاب، فأقتصر على كلام ابن القيم المتعلق بموضوع الكتاب، بحيث يصل القارئ إلى ما قصد إليه المؤلف من أقرب طريق.

وهكذا ـ وبحمد الله ـ ينضم هذا «المهذب» إلى سلسلة «مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم» ليأخذ مكانه في عقدها، موفراً على القارئ الكريم الوقت والجهد، سالكاً به طريق السلاسة والوضوح الذي عرف عن الإمام ابن القيم.

وقد يكون من المستحسن أن يتعرف القارئ الكريم على طبيعة الجهد المبذول.. والغاية المرجوة من عملي في هذا الكتاب.. وهذا ما سأبينه في الفقرات التالية من هذه المقدمة، والله أسأل أن يجعل هذا العمل وكل أعمالي، خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ

١/ ٨/ ٢٠٠٢ م

وكتبه

صالح أحمد الشامي

كتاب «مدارج السالكين»

ألَّف الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب تحت عنوان : «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» .

ويقع الكتاب في ثلاثة مجلدات .

وقد بدأ بالحديث عن سورة الفاتحة كمدخل للبحث، واستمرَّ هذا الموضوع حتى الصفحة (١٢٢) من الجزء الأول، حيث بدأ الكلام عن المنازل التي هي موضوع الكتاب .

وطريقته في عرض المنازل :

أن يتحدث عن «المنزلة» محل البحث، فيتكلم بما ييسره الله له، ويستوفي ما يتعلق بالموضوع .

ثم ينتقل إلى ما قاله شيخ الإسلام الهروي في كتابه «منازل السائرين» فيتناوله بالشرح جملة جملة، وفي بعض الأحيان كلمة كلمة، حسب ما يقتضيه المقام، وفي بعض الأحيان قد يستكمل ما أراد قوله أثناء شرحه لكلام الهروي .

ونحن ـ في الحقيقة ـ عندما نقرأ في كتاب «المدارج» نجد أنفسنا أمام كتابين في موضوع واحد، لمؤلف واحد :

أما الأول : فهو ما كتبه المؤلف عن المنازل، وهو مدارج السالكين .

وأما الثاني : فهو شرح كتاب «منازل السائرين» .

ونتج عن ذلك :

١ـ التكرار، فالموضوع الواحد يعرض مرتين، وإن اختلف الأسلوب .

٢ ـ أصبح الكتاب في ثلاثة مجلدات، وكان يكفيه مجلد واحد.

٣ ـ تشويش فكر القارئ وبخاصة عندما تكون وجهات النظر مختلفة بين الشيخين.

٤ ـ تقطيع الموضوع ـ في غالب الأحيان ـ بسبب طريقة الشرح تارة، وبسبب الاستطرادات تارة أخرى.

أكتفي بهذا الوصف المجمل للكتاب.

الهروي وكتابه «منازل السائرين»:

أما الهروي: فهو شيخ الإسلام، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري، الحنبلي، الصوفي، المحدِّث، الأصولي.

ولد بمدينة «قندهار» سنة (٣٩٦هـ)، وتوفي بمدينة «هراة» سنة (٤٨١هـ).

قال في شذرات الذهب: «كان قذىً في أعين المبتدعة، وسيفاً على الجهمية، وقد امتحن مرات، وصنف عدة مصنفات، وكان شيخ خراسان في زمنه غير مدافع..».

وأما كتابه فهو «منازل السائرين إلى الحق المبين»، وهو الذي شرحه ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين».

وهو كتاب صغير، وضعه على طريقة المتون، بل هو كتيب من حيث حجمه وعدد صفحاته.

وقسمه إلى مئة منزلة، يتدرج بها السائر.. وكل منزلة قسمت بدورها إلى ثلاث درجات، فالأولى درجة العامة، وهي لعامة المسلمين، والثانية درجة الخاصة، وهي لخاصة المؤمنين، والثالثة درجة خاصة الخاصة وهي للواصلين.

وإذاً، فنحن في هذا الكتاب أمام شرح لثلاثمائة درجة، وبيان مواصفات وحدود كلٍّ منها.

وبسبب كثرة الدرجات، وقلة الكلمات الواصفة لكل منها، اضطر إلى كثير من التكلف اللفظي والمعنوي، والتبست عباراته على قارئيه، وشردت عنهم معاني ألفاظه.. فجانب الكتاب البساطة والوضوح اللازمين في مثل هذا الموضوع، مما دفع بعضهم إلى رميه بالتشبيه والتجسيم، وهو من ذلك بريء.

ابن القيم و«منازل السائرين»:

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الإمام ابن القيم كان معجباً بالشيخ «الهروي» من حيث كونه واحداً من فقهاء الحنابلة، ومن حيث سيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاده أهلَ البدعِ الذي لا يشق له فيه غبار، ومواقفه المشهورة في نصرة الله ورسولهﷺ.

وقد وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «عمله خير من علمه»، وقد علَّق ابن القيم على قول ابن تيمية قائلاً: «وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله»[1]. وقال ابن القيم أيضاً: «وصاحب المنازل ـ رحمه الله ـ كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية.. الذين سعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بَهْتِ الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث..»[2].

وقال: «وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبيِّن مرتبته من السنة، ومقداره

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٣٩٤، دار الكتاب العربي، تحقيق: محمد حامد الفقي.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٦٤.

في العلم، وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل»[1].

هذه صورة الشيخ القائمة في ذهن الإمام ابن القيم.

فلما رأى النقد الموجه إليه بسبب غموض عباراته، ووقوعه في بعض الأخطاء والأوهام التي روَّج لها المبتدعة ووجدوها منفذاً للنيل منه.. رأى من واجبه الذبَّ عن عرض هذا الشيخ صاحب المواقف في نصرة الله ورسوله.

ولا يكون ذلك إلا بشرح الكتاب وبيان محاسنه، وهو الجانب الذي لم يذكره أعداؤه، فبادر إلى ذلك مبيناً وجهة نظر الشيخ، شارحاً غامض كلامه، مبيناً مبهمه..

ذلك هو الدافع ـ فيما أرى والله أعلم ـ إلى شرح الكتاب.

ولكن ابن القيم لم يكن هدفه من ذلك تبرير الأخطاء، والإغضاء عن الأوهام، بل بيان الحق والصواب، ويحسن بنا أن ننقل بعضاً من عباراته في هذا الصدد.

فمن ذلك قوله: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحبّ إلينا منه، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله..»[2].

وقال: «هذا حاصل كلامه محرراً مقرراً، وهو من منكر كلامه»[3].

وقال: «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل..»[4].

وقال: «ولعمر الله، لقد كان في غنية عن هذا الباب، وعن هذه التسمية، ولقد أفسد الكتاب بذلك..»[5]. وهذا في الكتاب كثير..

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٨٧.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٧.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٦٢.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٩.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٤٠٠.

وللإمام ابن القيم موقف ثابت من تقسيم الشيخ كل منزلة إلى ثلاث درجات، الثالثة منها لخاصة الخاصة، وهي التي تؤدي عند الشيخ الهروي إلى منزلة الفناء، وابن القيم يختلف معه في هذه القضية، ولا يرى الفناء غاية المطاف.. بل وينتقد منزلة الفناء التي كانت سبباً في انحراف كثيرين.

ويقول ابن القيم في بيان ذلك: «والشيخ ـ رحمه الله ـ ممن يبالغُ في إنكار الأسباب، ولا يرى وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية، وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب يرجع إلى هذين الأصلين، وقد عرفت ما فيهما وأن الصواب خلافهما..»[1].

ويقول: «ولكنه ـ رحمه الله ـ كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم على الفناء شيئاً، ويراه الغاية التي يُشَمِّرُ إليها السالكون، والعَلَم الذي يؤمه السائرون، واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع، وعَظُمَ موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه، علماً وحالاً وذوقاً، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية بادياً على صفحات كلامه، وِزانَ تعطيلِ الجهمية لما اقتضته أصولهم في نفي الصفات»[2].

إن مناقشة المؤلف للشيخ الهروي في درجة خاصة الخاصة في كل منزلة قد شغل مساحة لا بأس بها من الكتاب[3].

يضاف إلى ذلك مناقشاته له في بعض ما ذهب إليه، إذ قد يستغرق مناقشة جملة وتصويبها أو بيان خطئها والصواب في المسألة العدد من الصفحات[4].. تلك هي صورة العلاقة بين الإمام وبين كتاب «منازل السائرين».

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٥١٩.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٢٦٤.

(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ فقرة «هل للخاصة توبة خاصة بهم؟» في منزلة التوبة، ص٨٦.

(٤) ومن أمثلة ذلك مناقشة قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» حيث استغرقت أكثر من عشر صفحات من (٢/ ١٤) إلى (٢/ ٥٢).

وإذا كان كتاب «منازل السائرين» في وقتنا هذا ليس محل اهتمام القراء، ولا يهمهم أمرُ حلِّ معضلاته، أو تصحيح أوهامه، فلمَ يضيعون بذلك أوقاتهم؟.

ثم إن الكتاب الآن ليس متداولاً بين الأيدي، والدواعي التي دفعت الإمام ابن القيم لشرحه والدفاع عن مؤلفه، لم تعد موجودة.. لهذا كان العمل على تهذيب «المدارج» أمراً مفيداً.

فكرة تهذيب «المدارج»:

إن الأمور السابقة ـ يضاف إليها الاستطرادات المعهودة في أسلوب ابن القيم ـ تجعل القارئ مشتت الفكر بعض الأحيان، غير قادر على جمع أطراف الموضوع الواحد.

وهذا ما دفعني إلى التفكير في تهذيب هذا الكتاب بحيث يقتصر البحث فيه على:

١ ـ ما كتبه الإمام ابن القيم بشأن «المنازل» بعيداً عن الشرح المتعلق بكتاب الهروي.

٢ ـ الاقتصار على المادة المتعلقة بعنوان الكتاب وموضوعه، بعيداً عن كل الاستطرادات الواردة فيه.

وبهذا تتحقق في الكتاب «طريقة المتقدمين» التي أثنى عليها الإمام ابن القيم عندما قال:

«فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم: كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام ببيان حقيقته وموجبه، وآفاته المانعة من حصوله..».

ولعل سبب عدم التزام الإمام بها، هو ارتباطه بشرح كتاب «المنازل»

الذي سلك فيه مؤلفه طريقة المتأخرين.

عملي في الكتاب:

الموضوع الرئيس في كتاب «مدارج السالكين» هو الكلام على «منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

فكان لا بدَّ من دراسة كل منزلة على انفراد، واستخلاص ما قاله ابن القيم فيها، وجمعه بعضه إلى بعض بحيث يكون متتابعاً يسير القارئ معه، دون أن تعترضه عوائق الاستطرادات أو الشرح والاختلاف.

وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ بعد صبر على العمل، إذ كان عليَّ ـ في كثير من الأحيان ـ أن أستخرج كلام ابن القيم من ثنايا شرحه للمنازل، لأضمه إلى كلامه الآخر الذي يبدأ به الموضوع عادة، بعد تنقيته من الاستطرادات..

وبهذه الطريقة تم الابتعاد عن «المصطلحات» التي وردت في «المنازل» والتي ينتقدها ابن القيم أشد النقد، والتي «لا يعرفها إلا النادر من الناس، ولا يتصورها أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة، ولو سمعها أكثر الخلق لما فهموها ولا عرفوا المراد منها إلا بترجمة»[1].

وقد عملت جهدي على أن تكون الموضوعات واضحة المعالم، مقسمة إلى فقرات، وقد أضع لكل فقرة عنواناً، عندما أجد ذلك مفيداً.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: وعنوانه: الكلام على فاتحة الكتاب.

وقد جمعت فيه كلام المؤلف عن هذه السورة الشريفة، وجعلته في سبعة فصول.

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٤٣٦.

الباب الثاني: وعنوانه: منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وفيه الموضوع الذي عنون المؤلف الكتاب به. وقد مهدت للمنازل بفصلين:

جمعت في الأول منهما كلام المؤلف عن المنازل وعددها وتقسيماتها.

وفي الثاني: جمعت كلام المؤلف فيما يكون قبل السير من الاستعداد وتهيئة الأسباب.

وتم بعد ذلك عرض المنازل واحدة بعد الأخرى مما اعتمده الإمام ابن القيم ورضيه، أما ما لم يعدّه الإمام منها كـ«الفناء» و«الهيمان» و«الحزن».. فلم أذكره.

الباب الثالث: وعنوانه: مختارات.

وفيه عدة موضوعات ذات صلة بموضوع الكتاب، جاءت ضمن استطرادات المؤلف، فرأيت أن أضعها في هذا الباب إتماماً للفائدة.

هذا ما يسر الله تعالى عمله من أجل تقريب هذا الكتاب القيم. ولم يكن عملي فيه الاختصار، فليس ما أقدمه اختصاراً للأصل، ولكنه انتقاءٌ لمادةِ الكتاب المرتبطة بعنوانه، وجمعٌ لها، وترتيب.

وبهذا يكون القارئ أمام كتاب «مدارج السالكين» الذي وضعه ابن القيم ولم يشاركه فيه أحد.

والخيرَ أردت، فأرجو أن أكون ممن اجتهد فأصاب، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

المهذب

من مدارج السالكين

لِلإمام ابن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١هـ

إعداد

صالح أحمد الشامي

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوانَ إلاَّ على الظَّالمينَ، وأَشهدُ أَنْ لا إلـه إلاَّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، رب العالمين، وإلـهُ المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأَشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله المبعوثُ بالكتاب المبينِ، الفارقِ بين الهدى والضلالِ، والغيِّ والرشاد، والشكِّ واليقين.

أنزله لنقرأَهُ تَدَبُّراً، ونتأَملَهُ تَبَصُّراً، ونسعدَ بهِ تذكُّراً، ونحمله على أَحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره ونجتهد على إقامة أَوامره ونواهيه، ونجتني ثمارَ علومهِ النافعةِ الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَمِ من بين رياضهِ وأزهاره.

فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أَرادَ معرفتهُ، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونورهُ المبينُ الذي أَشرقت له الظلماتُ، ورحمته المهداةُ التي بها صلاحُ جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأَسباب، وبابه الأعظمُ الذي منه الدخول، فلا يغلقُ إذا غُلِّقت الأَبوابُ.

وهو الصِّراط المستقيمُ الذي لا تميلُ به الآراءُ، والذكرُ الحكيمُ الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، والنُّزُلُ الكريمُ الذي لا يشبعُ منه العلماءُ، لاتفنى عجائبُهُ، ولا تُقلعُ سحائبه، ولا تنقضي آياتُـهُ، ولا تختلف دلالاتُهُ، كلما ازدادت البصائرُ فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هدايةً وتبصيراً، وكلما بَجَّست مَعينَهُ فَجَّر بها ينابيعَ الحِكمةِ تفجيراً.

فهو نورُ البصائر من عَماها، وشفاءُ الصدور من أدوائها وجَواها، وحياةُ القلوبِ، ولذَّةُ النُّفوس، ورياضُ القلوب، وحادي الأرواح، إلى

بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح! حيَّ على الفلاح. نادى به منادي الإيمان على رأسِ الصِّراطِ المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

سبحانَ الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباسِ العلم من مشكاتها من كنوزِ الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟!.

أَفيظنُّ المعرضُ عن كتابِ ربِّه وسنة رسوله أنْ ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أَو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأَنواع الخيال؟.

هيهاتَ واللهِ، لقد ظنَّ أكذبَ الظنِّ، ومَنَّتْهُ نفسه أَبين المحال، وإنَّما ضُمِنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله تعالى على غيره، وتزوَّدَ التقوى وائتمَّ بالدليل، وسلَك الصِّراطَ المستقيم، واستمسكَ من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصامَ لها، والله سميعٌ عليم.

وبعدُ، فلما كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعلمِ النافع، والعملِ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحق، وبتكميلهِ لغيرهِ في هذين الأَمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

فأقسمَ سبحانه أنَّ كلَّ واحدٍ خاسر إلاَّ من كمَّلَ قُوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية له بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتِمَّانِ إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقاً بالإنسان أنْ يُنفقَ ساعاتِ عمره ـ بل أَنفاسَهُ ـ فيما ينالُ به المطالبَ العالية، ويخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلاَّ بالإقبال على القرآنِ وتفهُّمِه وتدبُّرِه، واستخراجِ كنوزه وإثارة دفائِنِه، وصرفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهمَّةِ عليه، فإنَّه الكفيلُ بمصالح العبادِ، في المعاشِ والمعادِ،

والموصلُ لهم إلى سبيل الرشادِ، فالحقيقةُ والطريقة، والأذواقُ والمواجيد الصحيحة، كلها لا تُقْتَبَسُ إلاّ من مشْكاتِه، ولا تُستثمرُ إلاَّ مِنْ شجراته.

ونحن ـ بعـون الله ـ ننبِّهُ على هذا بالكلام على فاتحـةِ الكتابِ وأُمِّ القرآن، وعلى بعضِ ما تضمَّنتهُ هذه السورة من هذه المطالبِ، وما تضمَّنتهُ من منازل السائرينَ، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائِلها وغاياتِها، ومواهبها وكسبياتها، وبيانِ أنَّهُ لا يقومُ غيرُ هذهِ السورة مقامَها، ولا مسدَّها. ولذلك لم يُنزل اللهُ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في القرآنِ مثلَها.

والله المستعان، وعليهُ التكلان. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله [العلي العظيم].

* * *

البَاب الأوّل

الكلام على فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴿٢﴾ الرحمن الرحيم ﴿٣﴾
مالك يوم الدين ﴿٤﴾ إياك نعبد وإياك
نستعين ﴿٥﴾ اهدنا الصراط المستقيم ﴿٦﴾ صراط
الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا
الضالين ﴿٧﴾ ﴾ .

* * *

الفصل الأول

المطالب العالية في سورة الفاتحة

اعلمْ أنَّ هذه السورةَ اشتملتْ على أُمّهاتِ المطالبِ العاليةِ أتمَّ اشتمالٍ، وتضمَّنتهاأكملَ تضمنٍ.

١ ـ فاشتملت على التعريفِ بالمعبودِ ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجعُ الأسماءِ الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارُها عليها، وهي: «الله والربُّ والرحمنُ» وبُنيت السورة على الإلٰهية، والربوبية، والرحمة.

فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبنيٌّ على الإلٰهية.

و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية.

وطلبِ الهدايةِ إلى صراطِهِ المستقيم بصفة الرحمة.

والحمدُ يتضمن الأمورَ الثلاثة، فهو المحمودُ في إلٰهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناءُ والمجد كمالان لحمده.

٢ ـ وتضمَّنتْ إثباتَ المعاد، وجزاء العبادِ بأعمالهم حَسَنِها وسيِّئها، وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكمِ إذ ذاك بين الخلائق، وكونَ حكمه بالعدل، وكلّ هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٣ ـ وتضمنت إثباتَ النبوَّاتِ من جهات عديدة:

[منها] ـ كونه «رب العالمين»، فلا يليقُ به أنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ سدىً هَمَلاً، لا يعَرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هَضْمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قَدَرهُ حق قدره من نسبه إليه.

[ومنها] ـ من اسمِ «الرحمن» الذي رحمته تمنعُ إهمالَ عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غايةَ كمالِهِمْ، فمن أعطى اسم «الرَّحمنِ» حقَّهُ علم أنه متضمِّنٌ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمُّنِهِ إنزالَ الغيثِ، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما يحصلُ به حياةُ القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لما يحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكنِ المحجوبون إنَّما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدركَ منه أُولو الألباب أمراً وراء ذلك.

[ومنها] ـ من ذِكْرِ «يوم الدين» فإنَّه اليومُ الذي يُدينُ اللهُ العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبُهُمْ على الخيراتِ، ويعاقبُهُمْ على المعاصي والسيئاتِ، وما كان الله ليعذب أحداً قبلَ إقامةِ الحجَّةِ عليه، والحجةُ إنَّما قامت برسله وكتبه، وبهم اسْتُحِق الثوابُ والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسِيقَ الأبرارُ إلى النعيم، والفجارُ إلى الجحيم.

[ومنها] ـ من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فالهداية: هي البيانُ والدلالة، ثم التوفيقُ والإلهام، وهما بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيانِ والدلالة إلاَّ من جهةِ الرسل، فإذا حصلَ البيانُ والدلالة والتعريف ترتَّبَ عليه هدايةُ التوفيق.

ومِنْ ها هنا يُعْلَمُ اضطرارُ العبد إلى سؤالِ هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلانُ سؤالِ من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإنَّ المجهولَ لنا من الحقِّ أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فِعلَه تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك، وما نعرفُ جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأَمرٌ يفوتُ الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كَمُلَتْ له هذه الأُمورُ كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبةٌ أُخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهدايةُ يوم القيامة إلى

طريق الجنة، وهو الصِّراطُ الموصلُ إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراطِ اللهِ المستقيم، الذي أَرسلَ به رسوله، وأَنزل به كتابه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قَدْرِ ثبوتِ قَدَمِ العبد على هذا الصراط الذي نصبَهُ اللهُ لعبادهِ في هذه الدار، يكون ثبوت قدَمِهِ على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم مَنْ يمُرُّ كالبرقِ، ومنهم من يمر كالطَّرْفِ، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حَبْواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكردَسُ في النار.

فلينظر العبدُ سَيْرَهُ على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْوَ القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

[ومنها] ـ ذكر المنعَم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة.. فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها ألبتة.

ففي ذكر المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة.

٤ ـ و[تضمنت] ذكرَ «الصراط المستقيم» مفرداً مُعَرَّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلكَ يُفيدُ تعيُّنه واختصاصه، وأَنَّهُ صراطٌ واحد.

وأَمَّا طرقُ أَهلِ الغضب والضلال فإِنَّهُ سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّد لفظ «صراطه» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابنُ مسعود: «خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً، وقال: هذا سَبيلُ

اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطوطاً عن يَمينهِ وعنْ يسارهِ، وقال: هذه سُبلٌ، على كلِّ سبيلٍ شَيْطانٌ يَدْعو إليه، ثمَّ قرأَ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

وهذا لأنَّ الطريقَ الموصلَ إلى الله واحدٌ.

وهو ما بعثَ به رسلَه وأنزلَ به كتبه، لا يصلُ إليهِ أَحدٌ إلاَّ من هذه الطريق، ولو أَتى الناسُ من كلِّ طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرقُ عليهم مسدودة، والأَبوابُ في وجهوهم مغلقةٌ، إلاَّ مِنْ هذا الطريقِ الواحد، فإنَّه متصلٌ بالله، موصلٌ إلى الله.

ولما كان طالبُ الصراطِ المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريقٍ مُرافقُه فيها في غاية القلة والعزة. والنفوسُ مجبولةٌ على وحشة التفرد، وعلى الأُنس بالرفيق، نبّه الله ـ سبحانه ـ على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزولَ عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، ولِيعلمَ أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلُّون قدْراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: «عليكَ بطريقِ الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، وكلما استوحشْتَ في تفرّدك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغضَّ الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٢)؛ وأخرجه ابن ماجه عن جابر (١١).

بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم.

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُه أشرف المواهب، علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه: حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم.

فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسلٌ إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء.

* * *

الفصل الثاني
التوحيد في سورة الفاتحة

اشتملت هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

فالتوحيد نوعان:

- نوع في العلم والاعتقاد، ويسمى: التوحيد العلمي، لتعلقه بالأخبار والمعرفة.

- ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى التوحيد القصدي الإرادي؛ لتعلقه بالقصد والإرادة.

وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلـهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأمّا توحيدُ العلمِ: فمدارُهُ على إثباتِ صفاتِ الكمالِ، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيهِ عن العيوبِ والنقائص، وقد دلَّ على هذا شيئان: مُجْمَل، ومُفَصَّل.

أمّا المجمل: فإثباتُ الحمد له سبحانه.

وأمّا **المفصل**: فذكرُ صفة الإلـهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربعِ مدارُ الأسماءِ والصفاتِ.

فأمّا تَضَمُّن الحمد لذلك، فإنَّ الحمدَ يتضمنُ مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون

حامداً من جحدَ صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفاتُ كمال المحمود أكثر، كان حمدُهُ أكملَ، وكلما نقصَ من صفاتِ كمالِهِ، نقصَ من حمدِه بحسبها.

ولهذا كان الحمدُ كله لله حمداً لا يُحصيه سواه، لكمالِ صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفاتِ الكمال، ونعوتِ الجلال التي لا يُحصيها سواهُ. ولهذا ذمَّ الله ـ تعالى ـ آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصافِ الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمعُ، ولا تبصرُ، ولا تتكلمُ، ولا تهدِي، ولا تنفعُ، ولا تَضرُّ.

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أنّ أسماءَ الرب تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماءٌ، وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالةً على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقمُ. واللهمَّ أعطني، فإنك أنت الضارُّ المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولأنها لو لم تدل على مَعانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يخبرَ عنها بمصادرها ويوصف بها. لكنّ الله أخبرَ عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

فالإلحادُ: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحدِ معانيها وتعطيلها،

وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودَها ومذمومَها.

الأصلُ الثاني: أن الاسمَ من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دِلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدَها، وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدلُّ على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوتُ الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن ها هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أن الفعل الاختياري لازمٌ للحياة، وأن السمعَ والبصرَ لازمٌ للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة ـ أثبتَ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزومَ ذلك، ولا عرفَ حقيقةَ الحياة ولوازمَها، وكذلك سائر صفاته.

إذا تقرر هذان الأصلان، فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدِّلالات الثلاثِ، فإنه دالٌّ على إلـٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلـٰهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفاتُ الإلـٰهية: هي صفاتُ الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائرَ الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال «الرحمن، والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعُلِمَ أن اسمَهُ «الله» مُستلزِمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلـٰهية، التي اشـتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهـه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مسـتلزم لكمال ربوبيتـه ورحمتـه، المتضمنين لكمال المُلـك والحمد، وإلـٰهيتـه وربوبيتـه ورحمانيتُـه وملكُه مسـتلزمٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيلُ ثبوتُ ذلك لمن ليس بحيّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها، ما يدل على أنه محمود في إلـٰهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إلـٰه محمود، ورب محمود، ورحمـٰن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

* * *

الفصل الثالث

اشتمال الفاتحة على شفاءين

تشتمل «الفاتحة» على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان

١ ـ فأمّااشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتمّ اشتمال، فإنّ مدار اعتلالِ القلوب وأسقامها على أصلين: فسادِ العلم. وفسادِ القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوب جميعها. فهدايةُ الصراطِ المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أَفْرَضَ دعاء على كلِّ عبد، وأوجبَهُ عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامَه.

والتحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً يتضمنُ الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإنَّ فسادَ القصدِ يتعلقُ بالغاياتِ والوسائل. فمن طلب غايةً مُنقطعةً مُضْمَحِلّةً فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كِلا نوعَي قصدِه فاسداً.

وهذا شأن كل من كان غاية طلبه غير الله وعبوديته من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءَها، والمقصود أنَّ قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب

الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعَهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهورُه وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حَقَّت الحقائق، وفاز المُحِقّون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هنالك من علم لا ينفع عالمَه، ويقين لا يُنجي مُسْتيقنه.

وكذلك من طلبَ الغايةَ العليا والمطلبَ الأعلى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنّها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضاً كحال هذا؛ وكلاهما فاسد القصد! ولا شفاء من هذا المرض إلاّ بدواء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإنّ هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره؛ بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم؛ والاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله، ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإذا ركّبها الطبيبُ اللطيفُ، العالمُ بالمرض، واستعملها المريضُ، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إنّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، ترامیا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء، والكِبْر.

فدواء الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ودواء الكِبْر بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ومن مرض الكبر والعجب بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعَم عليهم ﴿غَيْرِ

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فسادِ القصد، الذين عرفوا الحقَّ وعدلوا عنه و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهلُ فسادِ العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يُسْتَشْفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عَقَلَت عن الله تعالى كلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

٢ ـ **وأمَّا تضمنها لشفاء الأبدان**: فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي «الصحيح» من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أنَّ ناساً من أصحاب النبي ﷺ مَرُّوا بحيٍّ من العَرَب، فلم يَقْرُوهُمْ، ولم يُضَيِّفوهم، فلُدِغَ سَيِّدُ الحي، فأَتَوْهُمْ؛ فقالوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقية، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تَجْعلوا لنا جُعْلاً، فجعلوا لهم على ذلك قَطيعاً من الغنم، فجَعَلَ رَجُلٌ مِنّا يَقْرَأُ عليهِ بفاتحةِ الكتاب، فقام كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بهِ قَلَبَة، فقلنا: لاَ تَعْجَلوا حتى نَأْتِيَ النَّبيَّ ﷺ، فأَتَيْناهُ، فذكرنا له ذلك، فقال: (وما يُدْرِيك أَنَّها رُقْيَة؟ كُلُوا، واضْرِبُوا لي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ)[1].

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء! هذا مع كون المحلّ غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم؛ فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)؛ ومسلم (٢٢٠١).

الفصل الرابع
العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة

[العبادة والاستعانة]:

وسرُّ الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدارُ العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزلَ الله مئةَ كتاب وأربعة كتب، جمعَ معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين؛ فنصفهما له تعالى وهو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؛ ونصفهما لعبده وهو ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادةُ» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: مذلَّلٌ، والتعبدُ: التذللُ والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً.

ومن ها هنا كان المنكرون محبةَ العباد لربهم منكرين حقيقةَ العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم، بل هو غايةُ مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بُغْيتهم ـ منكرين لكونه إلـٰهاً، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم؛ فهذا غاية توحيدهم؛ وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ

ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولهذا يُحتج عليهم به على توحيد إلٰهيته، وأنه لا ينبغي أن يُعبد غيرُه، كما أنه لا خالق غيره ولا ربَّ سواه.

و«الاستعانةُ» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد على الله تعالى، فإن العبدَ قد يثق بالواحد من الناس؛ ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذان الأصلان ـ وهما التوكلُ والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع[1]، قرن بينهما فيها.

[تقديم العبادة على الاستعانة]:

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس، ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له.

---

(١) انظر: هود (١٢٣)، والممتحنة (٤)، والمزمل (٨ و٩)، والرعد (٣٠).

ولأن «العبـادة» لا تكون إلاّ من مُخْلِص، و«الاستعانـة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة، وهو بيان صَدَقَته التي تَصَدَّقَ بها عليك، وأداءُ حَقِّهِ أهمُّ من التعرض لصدقته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

[حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين]:

وأما تقديم المعبـود والمسـتعان على الفعلين، ففيه: أدبُهم مع الله تعالى بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمامُ وشدةُ العناية به، وفيه الإيذانُ بالاختصاص، المسمى بالحصْر، فهو في قوة: لا نعبد إلاّ إياك، ولا نستعين إلاّ بك، والحاكم في ذلك ذوقُ العربية والفقهُ فيها، وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق.

[أقسام الناس بحسب العبادة والاستعانة]:

إذا عُرف هذا، فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

[القسم الأول]: أجلُّها وأفضلُها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانةَ على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النبي ﷺ لِلحِبِّ معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: (يا مُعَاذُ،

واللهِ إنّي لأُحِبُّكَ، فلاَ تَنْسَ أنْ تَقُولَ دُبُر كُلِّ صَلاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومقابل هؤلاء:

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادةَ ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعانَ به، فعلى حُظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويَمُدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه إليه عدوه إبليس ـ لعنه الله ـ، ومع هذا، فقد سأله حاجةً فأعطاه إياها، ومتَّعه بها؛ ولكن لمّا لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادةً له في شقاوته، وبُعْده عن الله وطرده عنه.

فليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها لـه، وفيها هلاكُه وشـقوتُه، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينـه، ويكون مَنْعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يجيبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً مُعَيّناً خِيرته، وعاقبته مُغَيَّبَةٌ عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بُدّاً، فَعَلّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢).

بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارةً باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وُكِّلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

القسم الثالث: من له عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مَقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لأنفسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفَّقَ هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، ولا خَذَلَ هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفرَ.

فهؤلاء لهم نصيبٌ منقوص من العبادة، لا استعانةَ معه، فهم مَوْكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريقُ الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره، نقض تكذيبُهُ توحيدَه.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكنَّ حظَّهم ناقصٌ من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقلّ نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

وهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم

وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حقَّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً لأزاله.

فإن قلتَ: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلتُ: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينةً به، وثقةً به.

القسم الرابع: وهو من شهد تفردَ الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعانَ به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقُضِيَتْ له، وأُسْعِف بها ولكن لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه، ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفةً بالله تعالى ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه.

* * *

الفصل الخامس
التحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

[المتابعة والإخلاص]:

إذا عُرِفَ هذا: فلا يكون العبد متحققاً بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود.

فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والناس منقسون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها ـ أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبّهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلبَ المحمَدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عبادَهُ بالموتِ والحياة لأجله؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، وجعل ما على الأرض زينةً لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: العملُ الحسنُ هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقْبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يُقْبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السُّنة.

القسم الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة، فليس عمله موافقاً للشرع، ولا هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عزَّ وجلّ، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يُحْمَدوا باتباع السنة والإخلاص.

القسم الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، كمن يظن أن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة.

القسم الرابع: مَنْ أعمالُه على متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالى، كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال..

فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة، لكنها غير خالصة فلا تقبل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

[قواعد العبادة]:

وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحققُ بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقادُ ما أَخبرَ الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه

وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسوله ﷺ.

وقولُ اللسان: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيينُ بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والالتجاء إليه، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومُستحبُّها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرارٌ بها، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ متضمنٌ للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

[لزوم ﴿إياك نعبد﴾ إلى الموت]:

قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦ ـ ٤٧]. واليقين ها هنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي «الصحيح» ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: (أمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جاءَهُ اليقينُ مِنْ رَبِّه)[1]، أي: الموت وما فيه.

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٣).

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: «مَنْ كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله؟»[1] ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلقَ كلَّهم إلى السجود فيسجد المؤمنون، ويَبقى الكفارُ والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليفُ هناك، وصارت عبوديةُ أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصلُ إلى مَقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنما وصلَ إلى مقام الكفر بالله تعالى، والانسلاخ من دينه، بل كُلَّما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ـ ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أُولي العزم أعظم من الواجب على مَنْ دونهم. والواجبُ على أُولي العلم أعظمُ من الواجب على مَنْ دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

[انقسام العبودية إلى عامة وخاصة]:

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبوديةُ أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

---

(١) انظر: البخاري (١٣٦٩)؛ ومسلم (٢٨٧١).

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته.

وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلـٰهيته.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع.. لكن أولياءه خضعوا له وذلُّوا له طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداءه خضعوا له قهراً ورغماً.

* * *